

التعقيبات التأكيدية في القرآن الكريم للحكم الشرعي مفهومها خصائصها وأغراضها - دراسة تأصيل وتطبيق

د. عبد المعين محمد علي جيدي القببسي

جامعة بايرو ، كنو ، نيجيريا

مركز البحوث والدراسات الاسلامية / قسم الشريعة والدراسات الاسلامية

المستخلص ..

يعنى هذا البحث بدراسة التعقيب القرآني الذي يقع في ختام الآية القرآنية أو بعد أي مقطع مكتمل المعنى من الآية القرآنية لأغراض تأكيدية تناسب خطاب النص القرآني التشريعي ، كما أظهرت الدراسة أنواع التعقيبات القرآنية وخصائصها وأغراضها .

وتظهر أهمية هذه الدراسة كونها تؤصل وتستقرئ وتطبق لموضوع مهم في فهم الحكم الشرعي ومقاصده ومراتبه قل من تطرق إليه فضلا عن دراسته إلا إشارات عابرات عن الإمام المقاصدي المفسر: العز بن عبد السلام .

وخلص البحث إلى أن التعقيبات هي جزء مكمل للخطاب التكليفي المقصود بسياق النص القرآني ، ويكون خادما له بالتأكيد والتقرير ، لث المكلّف على الامتثال والانسياق لتطبيق النص وأغراضه .

الكلمات المفتاحية: التعقيبات التأكيدية ، الحكم الشرعي ، مفهوم ، خصائص ، أغراض ، تأصيل ، تطبيق.

Assertive comments on the Islamic ruling, its concept, characteristics and purposes - a study of rooting and application

Dr. Abdel Moein Muhammad Ali Jeedi Al Qubaisi

Department of Sharia and Islamic Studies / Center for Research and Islamic Studies / University of Bairro, Keno, Nigeria

Abstract :

This research is concerned with studying the Qur'anic commentary that falls at the end of the Qur'anic verse or after any full-meaning part of the Qur'anic verse for affirmative purposes that fit the discourse of the Qur'an legislative text, as the study showed the types of Qur'anic commentaries, their characteristics and purposes.

The importance of this study appears as it is rooted, extrapolated and applied to an important topic in understanding the legal ruling, its purposes and its ranks.

The research concluded that the commentaries are an integral part of the assignment discourse intended in the context of the Qur'an text, and serve it with certainty and determination, to urge the taxpayer to comply and be inclined to implement the text and its purposes.

Keywords: affirmative comments, Sharia judgment, concept, characteristics, purposes, rooting, application.

على الخطة التالية :

- المبحث الأول: تعريف التعقيبات القرآنية وعلاقتها بالفاصلة القرآنية
- المبحث الثاني : أنواع التعقيبات القرآنية
- المبحث الثالث: خصائص التعقيبات القرآنية
- المبحث الرابع: الأغراض العامة للتعقيبات القرآنية.
- الخاتمة والنتائج .

المبحث الأول

تعريف التعقيبات القرآنية

وعلاقتها بالفاصلة القرآنية

تعريف التعقيب القرآني

المقصود بالتعقيب القرآني: الجزء أو المقطع من الآية القرآنية الذي يقع في ختام الآية القرآنية، أو بعد أي مقطع من الآية مكتمل المعنى سواء في وسط الآية ، أو سغيرها ، لأغراض تأكيدية مختلفة تناسب ما سبقه من الآية.⁽¹⁾

وذلك يتجلى في النفاط الآتية :

1/ التعقيب القرآني : يأتي تعقيباً على حكم شرعي سبقه ، ويكون تذييلاً له لأغراض تناسب ذلك الحكم الشرعي يأتي بيانها في ثانياً هذا المبحث.

2/ من حيث ارتباطه بما يعقب عليه وعدم إرتباطه من حيث الإرتباط - فإنه يكون مستقلاً أو شبه مستقل من حيث الإعراب ؛ لذا يكون معناه مستقلاً من المقطع الذي يعقبه مع التناسب الكامل بينهما ، وذلك بين في الآيات الطويلة في المدني والمكي .

3/ موقعه يكون غالباً في نهاية الآية حيث يختم كتعقيب يمثل الختم التوقيعي لمعنى الآية - إن صح

(1) جاء بعض هذا التعريف عند : أحمد أبو زيد ، التناسب البياني في القرآن ، / 91 .

مقدمة

الحمد لله الذي جعل القرآن حجته البالغة على خلقه ، وأنزل كتابه بلسان عربي مبين والصلاة والسلام على عبده ورسوله المؤيد بالقرآن المعجز الذي تحدى الله به الخلق بأقصر آية منه ، ليكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . وبعد

موضوع البحث :

يهدف هذا البحث دراسة عادة من عادات القرآن الكريم في خطابه التشريعي وهي أن يبدأ بمهدات ومقدمات شتى إلى المقصود الأساسي في خطاب الآية القرآنية ثم يثنيه بتعقيبات متنوعة ذات أغراض تأكيدية بالأساس لها خصائصها وأغراضها تقريراً للمقصد الأساسي في سياق الآية القرآنية .

أهمية البحث:

من الأهمية بمكان فهم هذا الأسلوب القرآني في مجال الاستنباط وتطبيق النص على الواقع في شتى المجالات التشريعية والتربوية والدعوية ومراتب المقاصد الشرعية .

منهج البحث والدراسات السابقة :

تأتي هذه الدراسة تأصيلاً واستقراءً وتطبيقاً وتحليلاً يعكس خصائص وأغراض هذا الأسلوب القرآني الذي ألمح إليه بإشارة عابرة الإمام المقاصدي والمفسر الكبير العز بن عبد السلام رحمه الله وهو يتكلم عن أسلوب القرآن في الخطاب التشريعي من خلال هيكل الآية القرآنية ونظمها ولم أجد لغيره هذا المفهوم .

خطة البحث :

اقتضت طبيعة البحث في الموضوع أن يكون

فيه نفس الدلالات السابقة في التعقيب على الحكم الأول .

وأما موقع التعقيب فنرى أنهما في وسط الآية ، وليس في خاتمتها - كما هو مشهور لدى الدارسين في التعقيبات القرآنية بأن التعقيب يقع في أواخر الآية فقط. ⁽¹⁾

ثم ختم الآية بعد الحكمين والتعقيب عليهما - بتعقيب ختاميين : أحدهما معلن لسبب النهي في الحكمين وذلك قوله تعالى : « أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ » ، فهذا التعليل معناه : أن زواج المشركة ، أو زواج المرأة المسلمة بالرجل المشرك سبب أساسي في الدعوة إلى النار ، وارتكاب ما يؤدي إلى دخولها ؛ فإنه قد تغر المرأة المشركة زوجها وتدعوه إلى دينها ، أو تكون سببا قويا لإدخال أولاده إلى دين الشرك والوثنية . وكذلك النهي عن زواج المسلمة بالكافر ؛ لأن المرأة ضعيفة يغلب عليها سلطان الزوج ، مما يؤدي إلى التأثير في عقيدتها وسلوكها ؛ فلذلك نهى المرأة المسلمة عن زواج المشرك . ولذلك أيضا أباح زواج المسلم باليهودية والنصرانية ، ولكونهما أهل كتاب في الأصل ، بعكس المشركة والوثنية . والله أعلم .

وأما التعقيب الختامي الثاني فهو قوله : « وَيُؤَيِّنُ ءَايَتَهُ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » . وهذا هو التعقيب النهائي الختامي للآية وهو متضمن تأكيد الآية كلها : أي أن كل ما يبينه الله تعالى من الأوامر والنواهي ، فإنه من باب التذكير والإيعاز ، وتقوية الإيمان الذي يوصل إلى مرضات الله ، وما يريده شرعا لا قدرا .

فهذا ما قصدناه من التعقيبات القرآنية على الأحكام الشرعية التي تشمل الآية كلها ، وليست ⁽¹⁾ كما مشى عليه : أحمد أبو زيد ، التناسب البياني في القرآن ، / 91 .

التعبير، وقد يكون في وسط الآية ، حيث يأتي تعقيبا لمعنى جاء في المقطع الذي سبق بعد إكتمال معناه الأساسي .

ولنمثل لهذه الدلالات التي أخذناها من تعريفنا السابق للتعقيب القرآني بأمثلة قرآنية تعكس لنا هذا المفهوم ، وكما ذكرنا فإن هذا المفهوم يتجلى واضحا في الآية الطويلة التي تتضمن عدة مقاطع يكون فيها أحكام ، وتوجيهات مختلفة تؤكد تلك الأحكام بشتى طرق التوكيد .

التطبيق العملي لمفهوم التعقيب القرآني السابق

ولنأخذ مثالا قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ ۖ وَلَآئِمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۚ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ البقرة: 221 . فهذه الآية تتضمن بالأساس حكمين شرعيين هما : النهي عن زواج المشركات حتى يؤمن ، والنهي عن تزويج المشرك بامرأة مسلمة حتى يؤمن .

والقرآن حتي يؤدي هذين الحكمين الشرعيين بالصورة التي هي أكثر تأكيداً وقبولاً لدى المخاطب ؛ جاء بعدة تعقيبات تؤكد هذين الحكمين في وسط الآية ، وفي خاتمتها .

فمثلاً : الحكم الأول « وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ » عقب عليه بقوله : « وَلَآئِمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ » ، فهذا التعقيب جاء بعد إكتمال المعنى في النهي عن زواج المشركة معللاً عدم زواج المشركة معنوياً ، وغائياً ، وحثاً على الإهتمام بزواج المسلمة ، ولو كانت أمة لا تملك حريتها .

وأما في الحكم الثاني : « وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا » فقد عقب عليه أيضا بقوله : « وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ » . فهذا

المنفصلة عن غيرها ، سواء كانت في بداية الآية ، أم وسطها ، أم آخرها ؟ .

فالإمام أبو عمرو الداني ، وقبله الإمام سيبويه يريان أنه في آخر كل جملة مفيدة ، وليس بالضرورة أن تكون رأس آية ، بل الحرف الأخير لكل جملة مفيدة ، وذلك يشبه حرف الروي في الشعر .

فلذلك يفرق الداني بين رءوس الآي والفواصل ، حيث ينقل عنه الزركشي : «أما الفاصلة فهي الكلام المنفصل مما بعده ، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس آي ، وكذلك الفواصل يكن رأس آي وغيرها . وكل رأس آية فاصلة ، وليس كل فاصلة رأس آية . فالفاصلة نعم النوعين ، وتجمع الضربين ؛ ولأجل كون معنى الفاصلة هذا ذكر سيبويه في تمثيل القوافي «يوم يأت» و «ما كنا نبغ» - وهما غير رأس آي بإجماع - مع «إذا يسر» وهو رأس آية باتفاق» .⁽³⁾

فهذا هو رأي الداني ، وقبله إمام النحو سيبويه . ولكن جمهور العلماء على خلاف ذلك ولا يسمون الفاصلة إلا ماكان على رأس آي ؛ لأنه بها يكتمل المعنى غالبا ، ويختتم بها معنى الآية كذلك . فهذه هي الفاصلة القرآنية .

أما كلام سيبويه والداني فهما يقصدان ما يشمل الفواصل اللغوية التي تعني : أواخر الجمل وهي بمثابة القوافي في الشعر .

بين الفواصل و التعقيبات القرآنية ؟

بعد تحديدنا لمفهوم كل من «التعقيب القرآني» ، و«الفاصلة القرآنية» ، يأتي سؤال مهم مفاده : أيهما أولى بالأخذ؟ ، ولا سيما على ضوء المفهوم الذي حددناه لمفهوم التعقيب القرآني ، وعلى ضوء حدود ومنهج بحثنا ؟.

مختصة بخاتمتها كماهو مشهور لدى العلماء القدامى والمعاصرين بنظام «الفاصلة القرآنية - خاتمة الآية القرآنية» .

وأما عن سبب إختيارنا لهذا المنهج ومافيه من فائدة ، فهذا ما نبينه في الفقرة التالية ، ولكن بعد تعريفنا للفاصلة القرآنية .

ثالثا : تعريف الفاصلة القرآنية .

أ/ الفاصلة لغة :

وهي مأخوذة من مادة «فصل» وتعني : بَوْنُ ما بين الشيئين ، أو الحاجز بين الشيئين ، وفصل شيء من شيء ، كفصل عضو من الجسد . ومنه التفصيل ، أي التبيين ، ومنه قوله تعالى : ﴿الرَّكْبُ أَحْكَمَتْ أَيْنُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ هود: 1 . وقوله تعالى : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ نَقْصِيلاً﴾ الإسراء: 12 . ولذلك أصل تسمية الفاصلة مأخوذة من هذه النصوص القرآنية ؛ لأنها تفصل بين الآي وتميز بينها .⁽¹⁾

ب/ الفاصلة اصطلاحا :

لقد عرفها العلماء بتعريفات مختلفة من اتجاهات عدة ، ولعل من أشمل هذه التعريفات هو تعريف الإمام الباقلاني حيث يقول : «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع ، يقع بها إفهام المعاني» .⁽²⁾ فكلام الإمام الباقلاني يشير إلى أن الفاصلة تكون في أواخر الآي لقوله « متشاكلة المقاطع » ، وذلك لا يكون إلا في أواخر الآي ، وأما حكمة ورود الفاصلة في الآية فهو فسر بقله « يقع بها إفهام المعاني » . فدور الفاصلة إذا تفهيم معنى الآية إما بتكميله ، أو زيادة الإيضاح ، أو تقريره وتأكيده كم سنبينه لاحقاً . هذا وقد اختلف العلماء على موقع الفاصلة القرآنية ، هل هو آخر الآية ، أم هو نهاية الجملة

(1) أنظر : لسان العرب ، مادة « فصل » ، وانظر سبب

التسمية ، الزركشي ، البرهان ، 1 / 53 .

(2) إعجاز القرآن ، / 270 .

(3) المصدر نفسه ، 1 / 53 .

إختاري واختياره .

الفروق الأساسية بين الإختيارين

وتتمثل هذه الفروق الجوهرية في الآتي :

أ/ أن الدكتور أبو زيد يساوي بين مصطلحي التعقيب والفاصلة في التطبيق العملي، فالتعقيب هو نفس الفاصلة لديه على مفهوم الجمهور للفاصلة القرآنية وهي كونها الخاتمة التي تكون في آواخر الآي. وقد إختاره لكونه أراد تحديد اسم محدد للتعقيب القرآني بمختلف أنواع المناسبات التي تشعبت أسماؤها خصوصاً عند علماء البديع القرآني، وفن المناسبات القرآنية.⁽²⁾

ب/ وأما مفهومي لمصطلح «التعقيب القرآني» في هذا البحث فهو أو سع فهما وتطبيقاً من «الفاصلة القرآنية» ، فهو شامل لكل تعقيب يقع في الآية القرآنية في أي جزء من الآية شريطة أن يكون واقعا بعد معنى مكتمل من حيث الإعراب والمعنى ، ويكون غالباً شبه مستقل عن ما يعقب عليه ، ولا يوجد ذلك التعقيب إلا في الآيات الطوال في المكي والمدني من القرآن. وقد رأينا أن الفاصلة لا تكون إلا في نهاية الآية ، بينما التعقيب القرآني يكون غير ذلك .

فهذا إذا هو الفرق الجوهرية بين ما ذهب إليه: الدكتور أبوزيد ، وما اخترته من مفهوم مصطلح التعقيب القرآني .

جواباً على هذا التساؤل المهم : أرى من الأهمية بمكان - أخذ مصطلح « التعقيب القرآني » ، بدل « الفاصلة القرآنية » ؛ لما له من دلالات واسعة تشمل أضرب الخواتيم القرآنية في أي موقع من الآية القرآنية ، بعكس الفاصلة القرآنية التي لا يمكن أن تصدق إلا على خواتم الآي .

مصطلح « التعقيب القرآني لدى الدارسين

لقد استخدم هذا المصطلح علماء متقدمون في علم المناسبات القرآنية ، ومنهم : ابن الزبير الغرناطي ، والسجلماسي صاحب كتاب « المنزع البديع » .

يقول ابن الزبير الغرناطي وهو يتكلم عن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ البقرة: 234، ثم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ البقرة: 240. قال: « إن تعقيب الآية الأولى بقوله « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » مناسب لما قبله من تأمينهن على أنفسهن فيما يلزمهن في مدة العدة المذكورة من إحداد وما يتعلق به ، وفيما يفعلن بعده، فإن أضمرن أو كتمن شيئاً لا يجوز - فعلم الله سبحانه محيط بذلك ، وهو الخبير به»⁽¹⁾ فهذا استعمال من ابن الزبير رحمه الله لمصطلح التعقيب بدل « الفاصلة » .

هذا وقد سبقني إلى تفصيل مصطلح التعقيب عن مصطلح «الفاصلة» باحث معاصر وهو الدكتور : أحمد أبوزيد في كتابه التناسب البياني في القرآن ، ولكن هناك فروق مهمة وجذرية بين

(2) ينظر للمزيد : التناسب البياني في القرآن ، / 97 .

(1) ملاك التأويل ، 1 / 274 .

من التفهم والتعقل لمرامييه ومقاصده لدى المخاطب والمكلف ؛ مما يؤدي إلى المبادرة إلى تنفيذه في أرض الواقع .

وكما ترى أيضا : هذا التعقيب لم يقع في ختام الآية القرآنية مثل الفاصلة. وهذا ما نسميه التعقيب على مقاطع الآية القرآنية ، ويشمل كل تعقيب وقع قبل ختام الآية القرآنية .

وأما المثال الثاني فهو للتعقيب العام الواقع في ختام الآي القرآنية ، ولنأت به أيضا من نفس آية المدائنة ، ويمثل ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة: 282. فهذا التعقيب الختامي للآية كلها وهو مكون من ثلاث جمل أو مقاطع . ونفهم منه أن التعقيب الختامي قد يكون تعقيباً متعدداً أي أكثر من تعقيب واحد ، كما يكون مزدوجاً أي يتكون من تعقيب عام وهو هنا: «وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ» ، ومن تعقيب خاص ، أي التعقيب بالأسماء والصفات الإلهية «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». وهذا التعقيب الخاص هو القسم الثاني من التعقيبات وإليك الحديث عنه :

ثانيا : التعقيبات (الخاصة)

نسميها بالتعقيبات الخاصة نظرا لموقعها من الآية القرآنية وهو : آخر الآية وختامها. وتتكون من قسمين أساسيين هما :

أ/ التعقيب بالأسماء والصفات: والتعقيب بالأسماء والصفات من أهم التعقيبات القرآنية نظراً لما تتضمنه أسماء الله وصفاته من الجلال والجمال ، ولما تشمل عليه من معان وأغراض متنوعة من وعد ووعد ، أو ترغيب وترهيب ، أو تعليم وإرشاد، وكل ذلك لغرض التأكيد لمعنى الآية ومضمونها . يأتي بها القرآن كما ذكرنا في ختام الآيات لتضفي على الآية جمالاً وتوكيداً معنوياً وتعريفاً بمنزل الآية الأمر والناهي من خلال نص الآية الكريم ، وكأن

المبحث الثاني أنواع التعقيبات القرآنية

أنواع التعقيبات القرآنية

حسب موقع التعقيب من نسق الآية القرآنية سنقسمه إلى قسمين أساسيين :-

أولاً : التعقيبات العامة

وسميناهنا تعقيبات عامة لأنها تعم أجزاء الآية القرآنية فتقع في أي جزء منها سواء كان في الوسط أو الخاتمة أو غير ذلك. ولنمثل لكل من هذه التعقيبات المختلفة :

فالمثال الأول للتعقيب العام في وسط الآية ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ البقرة: 282. فهذا المقطع من آية المدائنة تضمن حكماً شرعياً وهو: عدد الشهود الذين يشهدون على الأمور المالية مثل عقد المدائنة، وذلك محدود بشهادة رجلين ، او رجل وامرأتين من خيار الناس وعدولهم . هذا هو الحكم بمجمله، ولكن بعد إكتمال معنى الحكم الشرعي في المقطع السابق، ورد بعده تعقيب يوضحه من باب التعليل لإختيار المرأتين في مقام الرجل الواحد؛ وذلك في قوله سبحانه: «أَنْ تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى». فهذا التعقيب يؤكد لمفهوم هذا الإختيار، وأنه لم يأت تفرقة عنصرية فيما بين الرجل والمرأة - كما يقول خصوم الإسلام وأعداؤه -، وإنما تقريراً لحقيقة علمية هي : قلة الضبط عند النساء، وأن الرجال يفوقون بذلك كثيرا عن النساء، وذلك ما كشفه العلم الطبي الحديث من : أن الذاكرة تضعف لدى النساء أثناء الكلام والنقاش، بعكس الرجال . والله أعلم .

فهذا التعليل أضفى على النص القرآن بكثير

عنهم وعن أعمالهم ، وأن جزاء الأعمال وثوابها عائد عليهم دونه ، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران: 97. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ لقمان: 12.

ومن النكات والأسرار اللطيفة في وصف الله بصفة «الغنى»: أنه قد وجد بالإستقراء من أسلوب القرآن بأن الوصف بالغنى لا يأتي إلا بعد محرم شرعي، كما ذكره الإمام العز بن عبد السلام ، حيث قال : « كل فعل رتب وصف الله عليه بالغنى فهو منهى عنه بالإستقراء : ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ لقمان: 12 ، ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ الزمر: 7 ، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ النساء: 131 ، ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ العنكبوت: 6. فكل الأعمال التي جاء بعدها وصف الله بصفة الغنى فهي: إما نهى عن الكفر الأكبر ، وإما نهى عن الأعمال المؤدية إلى الكفر كالرياء والسمعة بالأعمال كقوله في الآية ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ العنكبوت: 6 ، أو الأعمال التي صاحبها أفعال أخرى محرمة ومخالفة لمقصد الشارع كالصدقة المصحوبة بالأذى والمن ، كما في قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ البقرة: 263.

2/ صفات الإثبات: وهذه الأسماء أيضا قسمان، ما يتضمن صفات ذاتية ، وما يتضمن صفات فعلية ، فالأول :

أ/ ما يتضمن الصفات الذاتية

وهي التي تعود إلى ذات الباري ﷻ كصفة الحياة

التعقيب بالأسماء والصفات توقيع لمنشئ هذا النص المقدس المتكلم به وهو رب العزة ﷻ .

وعلى العموم فإن صفات الله ﷻ ضربان : صفات نفسي ، وصفات إثبات ، والإثبات أيضا ضربان : صفات ذاتية ، وصفات فعلية.⁽¹⁾ فلننظر إلى كل قسم وما فيه من معان وأغراض تعود بالتأكيد على معاني الآي القرآنية .

1/ صفات النفسي: ويسمونها بعضهم «الصفات السلبية». والمقصود بذلك الصفات التي للتنزيه عن النقائص وتتضمن نفسي ضدها عن الله ﷻ كصفة [القدوس، والسلام، والغني] وغير ذلك . فهذا القسم من الصفات في وقوعه ختاماً للآي القرآنية يدل على معان عامة :-

أ/ التمدح والثناء لله ﷻ حيث نفى عن نفسه هذه النقائص بهذه الصفات الجليلة

ب/ التعليم لعباده بمعاني هذه الصفات ، وإعلام العباد بذلك ليعاملوا الرب ﷻ بمثلها ولا يخالفوه .

ج/ الترغيب في الإعظام لله ﷻ عبر هذه الصفات - صفات النفسي - ، وذلك مقصد مهم من مقاصد القرآن شرع لأجله العبادات والأحكام الشرعية عموماً .

فهذه الصفات عموماً تؤدي هذه الأغراض ، وتكمل هذا الدور. ولنأت الآن بأمثلة تطبيقية لهذه الأغراض العامة من التعقيبات القرآنية :

وعلى سبيل المثال قد ورد وصف الله بصفة الغنى كثيراً في ختام الآيات متضمناً هذه المعاني السابقة كلها ، ففيه التمدح من الله ﷻ والثناء عليه سبحانه وتعالى ، كما أنه سبحانه وتعالى يُعَلِّمُ العباد من خلال هذا الوصف العظيم غناه

(1) ينظر في هذا : العز بن عبد السلام ، الإمام في بيان أدلة الأحكام / 45.

يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿البقرة: 95﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿آل عمران: 63﴾.

ب/ الصفات الفعلية :

وهي صفات الأفعال كالخالق والرزاق، والوهاب والفتاح والنافع والقهار والجبار ، وغير ذلك من صفات الأفعال ، وتعقب بهذه الصفات للدلالة على :

1 - التمدح والثناء لله ﷻ . ونلاحظ أن هذا الغرض - التمدح - يشترك فيها جميع الصفات بمختلف أقسامها .

2 - التمنن . فالله يمتن على عباده بما يمدهم عليه من المنافع كالتمنن بالرزاق : ﴿فَنَقْبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ آل عمران: 37 . وكالتمنن بصفة الفتاح ، حيث يفتح الله لعباده أبواب العطايا والمنح والأفضال : ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ سبأ: 26 ، يفتح قلوب عباده إلى معرفة الحقائق والمعارف .

3 - الترغيب ، حيث يرغب بمضمون ومعاني هذه الصفات كالترغيب بصفة الرزاق: ترغيباً بطلب الرزق من الرزاق ، وطلب النفع من النافع، وطلب دفع الضر من الضار القادر وحده على دفعه سبحانه وتعالى .

4 - التعليم لأجل التعظيم: أي لتعظيم الله ﷻ ، فهذه الصفات الفعلية هي صفات تعظيم وإظهار لمهابة الله ﷻ .

فهذه هي الدلالات الإجمالية للأسماء والصفات عموماً من حيث دلالتها على الأحكام الشرعية

والعلم والقدرة والسمع والبصر وغير ذلك .

وهذه الصفات الذاتية كغيرها من الصفات الإلهية التي تأتي للتعقيب لها أغراض عامة وخاصة، ومنها:

1. التعليم: فهي تأتي لتعليم العباد بمعاني هذه الصفات الذاتية ليعرفوا بها الرب ﷻ ويعبدوه بها رباً موصوفاً بهذه الصفات .

2. الترغيب: وذلك لترغيب العبد بمضمون هذه الصفات فمثلاً : الترغيب بصفة العلم ، حيث يعلم العبد : أن أن الله عليم بحاله في السراء والضراء، ومدى حاجته إلى العون ، وأن الله عليم مطلع بأعدائه وما يدبرون له في حالة خوفه ، وغير ذلك ، فهكذا نرى أن الترغيب من معاني هذه الصفات ، فلا يسأم العبد من عبادة رب موصوف بذلك .

والترغيب يتضمن الترغيب في تعظيم الله وإجلاله، وكذلك الترغيب في طاعته وعبادته.

3. التمدح والثناء لله ﷻ: فالله يمدح نفسه مثلاً بالقدرة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ الأحزاب: 27، وكذلك التمدح بوصف العلم : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ النساء: 32.

4. الترهيب : وذلك ترهيباً من المعصية ، فهذه الصفات تتضمن التخويف من المعاصي، ومثاله: صفة البصر ، حيث يقول : ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ البقرة: 96، ﴿وَأَنفِقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْصُرُ مَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ البقرة: 233. وكذلك الترهيب بصفة العلم كما في هذه الآيات : ﴿وَلَنْ

وتأكيدها .

فالأسماء والصفات من الوسائل المقاصدية للقرآن لدلالة الأحكام الشرعية وتأكيدها .

ب/ التعقيب بالصفات الإنسانية

ونعني بذلك التعقيب بصفات المخاطبين الذين يخاطبهم القرآن من خلال أوامره ونواهيه، سواء كانت صفات واقعية مطبقة في سلوك المخاطب، إيجابية أو سلبية، أو صفات يريد القرآن تطبيقها فعلا على الواقع، من باب الترغيب، أو صفات يحذر القرآن من وقوعها في سلوك المكلف، ويحذر منها عن طريق غير مباشر بأسلوب التهيب، وقد يكون مثلها كالاتي :

1. صفات المدح المطبقة في سلوك المخاطب، كما في قوله تعالى : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِبُونَ﴾ الحجرات: 7 ، ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر).

2. صفات ذم موجودة فعلا ، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾ النحل: 108 . ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ البقرة: 27 ، ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ التوبة: 87 ، ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ البقرة: 190 ، ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ البقرة: 205

3. صفات مدح يراد تطبيقها وتجسيدها في سلوك المخاطبين ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ

قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجَعَتْ مِن أَعْنَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُقْضِلَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الرعد: 4 ، ﴿يُنَبِّئُ لَكُمْ بِهِ الزَّيْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل: 11 ، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَآذْكُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: 63 ، ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة: 195 .

4. صفات ذم يراد التهيب منها ، وعدم وقوعها من المكلف ، ومن ذلك هذه التعقيبات التالية: قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ البقرة: 205 ، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ آل عمران: 57⁽¹⁾ .

المبحث الثالث

خصائص التعقيبات القرآنية

المقصود بالخصائص هنا : تلك المعالم والمظاهر التي تميز التعقيبات القرآنية بقسميها - التعقيبات العامة - والخاصة « الأسماء والصفات ، والصفات الإنسانية » ، من حيثيات مختلفة ومن جهات عدة: من حيث الموقع ، ومن حيث المناسبة بين الآية والتعقيب القرآني ، ومن حيث دور التعقيب في معنى الآية إجمالاً ، وحجم التعقيب من حيث الطول والتعدد والتنوع، وغير ذلك من الحيثيات المتعلقة بالتعقيب القرآني.

(1) ستأتي تفاصيل هذه الصفات الإنسانية في التعقيبات القرآنية في مبحث أغراض التعقيبات القرآنية ، ص 24

ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿المؤمنون: 12 - 14﴾، إلى قوله «ثم أنشأناه خلقا آخر» قال معاذ بن جبل «فتبارك الله أحسن الخالقين»، فضحك رسول الله ﷺ، فقال معاذ مم ضحكك يا رسول الله؟ قال بها ختمت⁽¹⁾.

وبهذا ندرك أن التعقيب يبرز وجهها جديدا في معنى الآية فتزداد وضوحا وبيانا؛ لأن التعقيب أو الفاصلة تلخص معنى الآية تلخيصا يبرز به المعنى المراد منها، وبعبارة أخرى فالتعقيب يمثل إشارة مضيئة إلى مركز ثقل في الآية، وهذا يظهر جليا في فواصل الآيات الطويلة، حيث تأتي الفاصلة مستقلة تؤدي معنى تاما مستقلا. ولو عمقنا النظر في ذلك الدور الذي يقوم به التعقيب على الآية نجده يتلخص في ثلاثة محاور أساسية:-

المحور الأول: التكميل لمعنى الآية؛

حيث يكمل المعنى الذي سبقه رغم إفادته حكما جديدا، كقوله تعالى تعقيبا على حكم الزاني والزانية: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ النور: 2. فهذا التعقيب مع إفادته حكما جديدا إلا أنه مكمل لمعنى قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ النور: 2. لأن التشهير بالزاني وعقوبته أمام منظر الجماهير من المؤمنين عقوبة أخرى معنوية تضاف إلى العقوبة المادية وهي جلده مائة جلدة، ولا شك أن ذلك تأكيد للنهي السابق عن عدم الرأفة والشفقة بالزاني.

(1) السيوطي، الإتقان، 2/ 101، ولم أعر على هذا الأثر في غير هذا المصدر، وخاصة كتب الحديث والأثر.

هذا وقد تقدمت إشارات عابرة لبعض هذه الخصائص في ما سبق من المباحث، ولكن نذكر هنا من ياب التفصيل والتحليل، ولنبدأ بالخصيصة الأولى:-

الخصيصة الأولى: دور التعقيب في نظم الآية

للتعقيب القرآني - لا سيما - التعقيبات الختامية التي هي بمثابة الفواصل القرآنية - دوران أساسيان:

أ/ الدور الجمالي

من حيث الإنسجام الصوتي لفواصل الآيات القرآنية، وتطريب الصوت في نهاياتها، واستراحة النفوس عند التلاوة حيث الوقوف على هذه الفواصل كسنة متبعة، ومن حيث أنها تؤذن بختام الآية وتفصلها عن ما سبقها من الآيات. فهذا الجمال الصوتي الذي يظهر لكل سامع للقرآن عند ترتيله سواء كان مؤمنا أم غير ذلك، وليس بالضرورة أن يفهم معاني القرآن.

وهذا الدور الجمالي للتعقيب القرآني رغم أهميته في إعجاز القرآن الكريم إلا أنه ليس محل دراستنا هنا فلنتجاوز إلى الدور الثاني.

ب/ الدور الوظيفي للتعقيب القرآني

التعقيبات القرآنية هي خادمة لمعاني الآيات؛ وبالتالي فهي واقعة موقعها من نظم الآية بحيث لا يسد غيرها مسدها، ولشدة تعلقها بمعنى الآية فإن نظم الآية الذي يسبقها يستدعيها؛ فنجد السامع يتوقعها، ويكاد يحدد نوعها متى ما أدرك سامعها معنى ما سبقها من النظم.

وقد ذكر العلماء في ذلك أخبارا وطرائف لمن سمعوا نظم الآية وتدبروا؛ فتنبئوا بخاتمتها قبل سماعها، كما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الشعبي عن زيد بن ثابت قال: أُملى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾

المحور الثاني : الإيضاح لمعنى الآية :

ويأتي في ذلك التعليل وزيادة الإيضاح ، وغيرهما مما يزيد بياناً لمعنى الآية من التعقيب : كالإستدراك ، والإحتراز ، والإستثناء .

ومن أمثلة التعقيب البياني التعليلي ، قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ عَلَيْكُمْ تَقْوَوْنَ ﴾ البقرة: 183 . ومن الإستثناء التعقيبي قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء: 95 ، فجملة « غير أولي الضرر » : جملة تعقيبية على الحكم الوارد قبلها .

المحور الثالث : التأكيد لمعنى الآية .

ويندرج تحت هذا المحور أغراض عدة ، ومنها: التعقيب بالوعد أو الوعيد ، والترغيب والترهيب ، والوعظ والتذكير ، أو المدح والذم ، وغير ذلك مما يعتبر مؤكداً لمعنى الآية .

وأكثر التعقيبات راجعة إلى محور التأكيد لمعنى الآية . وسوف تظهر أمثلة هذه المحاور بالتفصيل في مبحث الأغراض العامة للتعقيبات القرآنية .

وهذه العلاقة التي عقدناها بين التعقيب القرآني ونظم الآية من خلال هذه المحاور الثلاثة يتبين بجلاء : قوة المناسبة بين كل من الآية القرآنية ، والتعقيب الذي يأتي فيها ، ولا سيما التعقيب الختامي مع نظم الآية ككل .

وهذه العلاقة او المناسبة سماها العلماء من أهل البلاغة ، وفن علوم القرآن بتسميات عدة وتفرعات مختلفة لا حاجة لنا في إيرادها هنا.⁽¹⁾

الخصيصة الثانية : تنوع التعقيب تبعاً للمعاني

التي يعقب عليها

يأتي التعقيب القرآني متناسباً ومتناسقاً مع نظم الآية كما سبقت الإشارة بذلك ، ويكون التعقيب من الدقة بمكان بحيث لايناسب مقامه أي تعقيب آخر ، ولكن قد لا تظهر هذه المناسبة أحياناً في بادئ الرأي لدقتها وخفتها ، ومن أمثلة هذا النوع من التعقيب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ المائدة: 118 ، كان المتبادر إلى الأذهان أن يكون التعقيب الختامي مثلاً : فإنك أنت الغفور الرحيم ، ولكن التعقيب جاء بوصف « العزيز الحكيم » ؛ لأنه لا يغفر لمن يستحق العقاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه ، عزيز لا يغلب ، ومع ذلك فهو سبحانه الحكيم الذي يضع كل شيء في محله ، ومن ذلك أن يغفر لمن يستحق العقاب ، فلفظ الحكيم فيه إحتراس حسن يدل على أن الحكمة التامة هي ما فعله سبحانه من المغفرة لمن يستحق العقاب .

وبهذا نجد تماماً : أن التعقيب يكون تبعاً لما يعقب عليه ، ويتنوع كذلك تبعاً أيضاً للمعاني والسياق القرآني ، ويظهر هذا التنوع والتناسق بين السياق والتعقيب جلياً في التعقيب بالأسماء والصفات الإلهية ﷻ التي تكون تعقيباً للأحكام والحدود الشرعية ، وكأنها تمثل تعريفاً لمصدر تلك الأحكام ومشروعها .

ولنأت بأمثلة تصدق وتوضح ما قرناه ، ويكون ذلك على مستويين :

الأول : على مستوى الصفة الواحدة :

ومن ذلك : صفة « العلم » تأتي على كثير من الآيات ، فهذه الصفة الواحدة تختلف مبنائها ومعناها من آية إلى أخرى ، كما يلي :

(1) أنظر على سبيل المثال : الزركشي ، البرهان ، 1 / 34 .

إسم الله «العزیز» بأسماء أخرى بـ «الحکیم» ، «كالعزیز الحکیم» وذلك هو الأكثر مع إسم العزیز، كما یقرن بـ «الرحیم» كالعزیز الرحیم» .
وهكذا نجد أيضا : أن إقتران الأسماء والصفات یختلف لاختلاف معنی الآیة التي یعقب علیها من وعد ووعد وتشریع وقصة ، أو غیر ذلك .

الخصیصة الثالثة : تنوع التعقیب تبعا لسیاق الآیة وموضوعها .

یتنوع التعقیب بالأسماء والصفات حسب موضوع الآیة ومجالها ، سواء كان التعقیب بصفة أو اسم مفرد ، أو مقرون ؛ ولذلك عرف من أسلوب القرآن مثلا : أن التعقیب بصفتي « العزیز الحکیم » یأتی فی مقام التذکیر بمعانی الغلبة والإقتدار، والقهر والإحکام، كقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ الفتح: 7 .

والتعقیب بصفتي «الغفور الرحیم» ، أو «الغفور الحلیم» یطرد فی مقامات العفو والتخفیف ، وتقویة الرجاء فی رحمة الله ، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ المائدة: 74 ، جاء بعد قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثُلُثٍ وَمَنْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ المائدة: 73 ، فاتحا باب التوبة والغفران على هؤلاء الكفار لیتوبوا إلى ربهم، وبوحدوا الله سبحانه وتعالى .

وهذا الإختلاف على مستوى التعقیب فی نسق الآیة كلها ومجمل معناها وسیاقها .

الخصیصة الرابعة : تعدد التعقیبات وتناسبها أشرنا فی كلامنا السابق عن التعقیب بالأسماء والصفات : أن الغالب فیها أن تكون مقرونة أي صفتين متتاليتين كـ « الغفور الرحیم » ، ویقل انفرادها ؛ فهذا بین فی تناسب كل صفة مع

■ التعبير بالعلم المطلق: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِنَعْنَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا عَآيِدَتِ اللَّهِ هُزُوًا وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة: 231 .

■ النعير بالخبرة في كل الأعمال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ البقرة: 234 .

■ التعبير بالإطلاع الشامل والتام بكل أعمال العباد وأفعالهم: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ البقرة: 110 ، ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هود: 112 .

■ التعبير بالعلم على الأعمال مطلقا: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ المؤمنون: 51 .

■ التعبير بأن الله عليم بحال العمل وما فيه من خير أو شر ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْزِدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْخُذُوا بِالْأَلْبَابِ﴾ البقرة: 197 .

فهذه الأمثلة نموذج على إختلاف وتنوع الخواثيم القرآنية للآيات بالصفات الإلهية حتى على مستوى الصفة الواحدة كصفة العلم الإلهي كما مثلنا ، یختلف التعبير ، أي المبني والمعنى من آية إلى أخرى .

الثاني : مستوى الإقتران بین الصفات الإلهية یتنوع التعقیب الإقتراني بالصفات التعقیبية ، حیث أن الإقتران هو الغالب فی التعقیب بالصفات والأسماء مقارنة بالانفراد ، وعلى سبیل المثال : یقرن

ونهم من هذا التعقيب المتعدد : بأن التعقيب الختامي قد يكون مكونا من عدة تعقيبات عامة ، وقد تكون متنوعة فيما بين تعقيب عام ، وتعقيب بالأسماء والصفات .

الخصيصة الخامسة : تنوع التعقيبات حسب طول الآية وقصرها

تنوع التعقيبات القرآنية من طول إلى قصر حسب طول الآية وقصرها ، وذلك تناسبا مع فقرات الآية ومقاطعها . فالتعقيبات - أو خواتيم الآي - في الآيات ذات الطول سواء كانت في السور الطوال أو القصار أو المتوسطة الطول - تأخذ غالبا سمة الإستقلال ، حيث تأتي بعد تمام المعنى - أو المعاني الأساسية في الآية ؛ فتكون بمثابة اللبنة أو التعليق الختامي على الآية ؛ وتؤدي حينئذ وظائف متعددة ، أهمها كما ذكرنا : التكميل ، والإيضاح ، والتأكيد .

وبهذا يكون التعقيب غالبا جملة أو أكثر مستوفية الأركان ، ويغلب عليها أن تكون جملة إسمية .

أما في الآيات القصار في أي سورة مهما كان حجمها ، فتكون كلمة مكملية لمعنى الجملة التي قبلها التي هي معمول لها من حيث الإعراب ، وبالتالي غير مستقلة عن بقية الآية . فهي قد تكون جملة قصيرة : جملة فعلية أضمر فيها فاعلها مثل « قَدْ وَأَخْرَ » ، « كُورَت » ، ويغلب ذلك في قصار السور؛ كالمفصل ، وما يشبهه ، وبناء عليه فإن التعقيب المستقل يكثر في السور الطوال كالبقرة وآل عمران والنساء ، إلخ .

ويكون التعقيب في هذه السور غالبا يميل إلى الطول ، بينما يقل بل يكاد ينعدم في الآيات التي تكون قصيرة .

أختها من حيث المضمون ، والدلالة العامة رغم إختصاص كل منهما بدلالات خاصة .

وهكذا التعقيبات العامة هي نفسها قد تكون مقرونة ، كما تكون مفردة ، سواء في التعقيبات الداخلية ، أو الختامية ولكن ذلك نادر مقارنة بالتعقيبات غير المقترنة فهي الغالبة في التعقيبات العامة ، عكس التعقيب بالأسماء والصفات .

والعلاقة بين هذه التعقيبات المقرونة تختلف من مقام إلى آخر، ولكن الغالب في ذلك هو غرض التأكيد . فانظر على سبيل المثال تعقيبا داخليا في وسط آية المداينة بعد الأمر بكتابة عقد المداينة جله ودقه : ﴿ وَلَا تَسْمُؤُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ﴾ ، عقب ذلك بثلاث تعقيبات متتالية هي بمثابة تعليل ذلك الأمر ، وهي : ﴿ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾ البقرة: 282 . والغرض من التعقيبات الثلاث هو التأكيد ؛ لأن التعليل للأحكام يفيد تأكيدها .

وأما التعقيب المقرون الختامي فمن أمثله ما جاء بعد نهاية آية الموارث : ﴿ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ - لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا - فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ - إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ النساء: 11 . فهذه ثلاث تعقيبات متتالية مؤكدة لما جاء في الآية من أحكام الموارث، حيث ان الله وحده هو العالم بمصالح عباده ، وليست المصلحة بكون الوارث إنا أو أبا، فيعطى المزيد من المال ، ثم أكد ذلك بأن هذه المقادير خط أحمر لا ينبغي تجاوزه ؛ حيث أنها فريضة مقدرة من الله ﷻ ، ثم التهديد بصفة العلم تقتضي بأن الله مطلع إطلاعا كاملا بمن يفرط في هذه المقادير الشرعية ، ثم الختام بصفة الحكمة المقرونة بالعلم ، وذلك أن الله لما حكم هذا فلاجل الحكمة التي يعلمها : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: 50 .

جديد بمختلف الدلات اللغوية ، ولكنها لا تكون في الغالب دلالة نصية .

أ/ التمنن

ومن تلك الخواتيم المستقلة التي تفيد حكما جديدا هو التمنن المفيد للإباحة ، قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكُمُ الْيَمِّ وَالْبَحْرِ وَبَالِغُكُمْ إِلَٰهَ الْغُرُوبِ﴾ النحل: 16 ، فقوله « وبالنجم » إلخ يفيد معنى جديدا ذلك أن النجوم تكون للإهتداء ومعرفة الجهات من قبل السائرين والمسافرين على الأرض والبحار، وذلك من باب الإمتنان على العقلاء .

ب/ التحريم

ومن أمثله التعقيبات التي تفيد التحريم عند ما يأتي التعقيب بوصف الغنى لله ﷻ وذلك على ضوء القاعدة السابقة التي أصلناها⁽²⁾ « كل عمل وصف الله بصفة الغنى « فهو للتحريم » .

كقوله تعالى معقبا للأمر بالحج لكل من استطاع إليه سبيلا : ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران: 97 ، فهذا التعقيب يتضمن حرمة التخلف عن الحج لمن استطاع إليه سبيلا بعد الأمر الصريح بذلك ، وذلك من عادة القرآن وأسلوبه في تأكيد الأمور الشرعية المهمة فيجمع الأمر بالشيء ويعقبه بالنهي عن تركه .

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ لقمان: 12 ، فدل على حرمة الكفران بنعمة الله ﷻ المأمور به صراحة بقوله : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لقمان: 12 .

فهذه الأمثلة الواضحة كافية للتدليل وإثبات أن التعقيبات الختامية قد تدل على أحكام شرعية جديدة مع تأكيدها لما سبق من نظم الآية .

والسر في ذلك - والله أعلم - : أن الغالب في السور القصصار أن سورها مكية النزول ، وللقرآن في مكة مجاله الخاص ، فالقرآن المكي كان يهدف إلى إصلاح الناس بإصلاح عقيدتهم ، ومن ثم سلوكهم، لذلك جاء بموضوعات تخدم هذا الغرض من التبشير والإنذار إلخ ؛ لذلك كانت آياته قصيرة العبارة حادة سريعة الإيقاع عنيفة الوقع - غالبا- ؛ فكانت الفاصلة القرآنية أكثر إنسجاما في المكي من حيث (السجع) - إن تسامحنا في هذه التسمية - ، والتجانس ، وأكثر ترنما وتطريبا من حيث الإيقاع الصوتي ، وذلك منسجم مع ما كان القرآن يطرحه ويعالجه في الفترة المكية من المواجهة والنزال في ساحة حرب مفتوحة مع مشركي مكة الذين كانوا بطرقهم يهتمون القرآن بالسحر والإختلاق ، فقد كان ذلك الإنسجام في الفواصل القرآنية ركنا أساسيا في عنصر التحدي الذوجه إلى الكفار في الفترة المكية ثم ختم الآية مدنية في أول سورة مدنية وهي البقرة .

أما القرآن المدني فكان مجاله الواسع: التشريع ، وإرساء القواعد للمجتمع الإنساني ، ووضع الأسس اللازمة للمؤسسات التي ستقود هذا المجتمع إلى سعادة الدارين من حيث العبادات والمعاملات ، والأخلاق والفكر ، والسياسة ؛ لذلك اتجهت سوره وآياته إلى الطول والإستقصاء ، وبناء عليه جاءت التعقيبات والخواتيم منسجمة مع هذا النسق الذي يميل إلى الطول، ومن ثم التفصيل والبيان.⁽¹⁾ الخصيصة السادسة: تأتي التعقيبات الختامية مفيدة لأحكام شرعية جديدة في نظم الآية .

ذلك أن التعقيبات القرآنية كجزء ختامي لنظم الآية ، قد يستعمل للدلالة على حكم شرعي

(1) ينظر حول هذه الفكرة : المطعني ، عبد العظيم ، خصائص التعبير القرآني ، / 235 . بتصرف ، وانظر أيضا : أبو زيد ، التناسب البياني / 99 . بتصرف .

(2) أنظر : مبحث التعقيب بالصفات التي للنفي / .

فكيف يمكن سماع الأصم مع كونه مدبراً ومولياً
ظهره للشخص الذي يناديه !!، فما أروع وأعظم
تعبير القرآن وبيانه .

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ أَتَعْبُوا
مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ يس: 21، ثم زاد في الحث على
الإتباع بصفة تضمنتها الفاصلة « وَهُمْ مُهْتَدُونَ »
. فالدعاة إلى الحق لا يسألون أجراً ومع ذلك هم
مهتدون ؛ فاجتمع فيهم الهداية ، وعدم طلب أي
منفعة مادية ، فكيف لا يستحقون أن يتبعهم أي
عاقول لمصلحته .

ب/ الإحتراس

وهو أن يكون الكلام محتملاً لشيء بعيد ؛
فيؤتى بما يدفع ذلك الإحتمال البعيد . ويقع هذا
الأسلوب في التعقيبات القرآنية سواء في داخل الآية
أو في ختامها . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :
﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ يَصْصَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي سَبْعِ
آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ النمل: 12،
فقوله « من غير سوء » إحتراس - أو إحتراس - عن
إمكان أن يكون ذلك البياض من آفة أو علة
مرضية كالبرص والبهق وغيرهما .

ومن أمثلة التعقيب الداخلي في هذا الأسلوب
أيضاً قوله تعالى في مدح أوليائه : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ
يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ
يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ
فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ المائدة: 54.
فلما كان وصفهم بالذلة على المؤمنين قد يحتمل
الضعف الأصلي الخلقي لهم - بكسر الخاء - ،
إحترس عن هذا الإحتمال ودفعه بقوله « أَعِزَّةٍ عَلَى
الْكَافِرِينَ » ، فدل أن ذلتهم على المؤمنين ناشئ من
تواضع واختيار منهم ، وليس ناشئاً عن ضعف
خلقي .

المبحث الرابع

الأغراض العامة للتعقيبات القرآنية

تدور التعقيبات القرآنية كما أشرنا سابقاً على
محاور ثلاثة : تكميل معنى الآية ، وزيادة البيان
والإيضاح ، والتوكيد والتقرير .

وكل المحاور الثلاثة خادمة في الأصل لغرض
التأكيد لمعاني الآيات والأحكام الشرعية، وراجعة
إليه .

والآن نفصل تلك المحاور الثلاثة وما يتفرع
عنها من أغراض ومقاصد :-

ويكون على محورين :

المحور الأول :

1/ تكميل المعنى وتقويته

ويدخل تحت هذا المحور كل ما يعتبر تكميلاً
للمعنى الأصلي للآية وتقوية له ، وقد وجدت أن
هناك عدة أساليب ذكرها علماء البديع القرآني
ترجع إلى هذا المحور ، ومنها :-
أ/ الإيغال

وسمي به لأن المتكلم قد جاوز المعنى الذي هو
أخذ فيه وبلغ إلى زيادة على الحد ، كالموغل في الأرض
الفلانية إذا بلغ منتهاها ، فهذا المتكلم إذا تم المعنى
الذي أراد ثم تعداه بزيادة فيه فقد أوغل .⁽¹⁾

ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا
تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ النمل: 80. فقد إكتمل
المعنى المراد في الآية بقوله « وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ » ، ثم
أراد أن يعلم تمام الكلام بالفاصلة التي هي موعلة
في المعنى ومزيدة له ، فقال « إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ » . فهذه
الحالة التي أشار إليها القرآن هي حالة خاصة
إجتمعت فيها الصمم ، وعدم سماع النداء أصلاً ، ثم
أضيف إلى ذلك الحال : أن ولوا إلى أعقابهم مدبرين!

(1) الزركشي ، المصدر السابق ، 3 / 80 .

ولا نستطيع أن نستقصي هذا الأسلوب الذي يشبه الإعتذار عن ما حصل لهؤلاء العصاة ، حيث أن الله ﷻ يبين أن العصاة ميثوسون منهم ، ولا يستحقون رحمة الله الواسعة « ولا يهلك على الله إلا هالك » .

ومن أمثلة الإحتراس في التعقيب الختامي أيضا قول النملة مخاطبة لباقي النمل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُم لَّا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ النمل: 18. جاء ختام الآية متضمنا الإحتراس الذي جيء به لنفي تعمد قتل وتخطيط النمل الضعاف ، حيث لا يمكن ذلك من سليمان وجنوده إلا في حالة عدم الشعور بوجود النمل ، لأنهم مصلحون ، وليسوا مفسدين في الأرض .

ج/ التذييل

وهو لغة : جعل الشيء ذيلًا للآخر .

واصطلاحا : الإتيان بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول تحقيقاً لدلالة منطوق الأول، أو مفهومه ، ليكون معه كالدليل ليظهر المعنى عند من لا يفهم ، ويكمل عند من فهمه .⁽¹⁾ قال الله تعالى مخبرا عن ما حل بأهل «سبأ» : ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ سبأ: 17 .

ثم ذيل ذلك المعنى بما يحقق منطوقه ويؤكده فقال: «وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ»، فافاد ذلك التعقيب معنى زائدا .

ومن أمثلته أيضا قوله تعالى : ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ فاطر: 14، فقوله في التعقيب : «وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ» تعقيب تذييل إشتمل على تأكيد صدق ما أخبر الله عنه

وعكسه قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ الفتح: 29. فهنا إكتمل المعنى ، وقد تكون الشدة على الكفار نابعة من غلظ الطبيعة والنفور الخلقي منهم ، فاحترس عن ذلك بقوله تعالى «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» .

ومن أمثلة أسلوب الإحتراس في التعقيبات القرآنية الختامية قوله تعالى حاكيا عن إهلاك قوم نوح : ﴿وَقِيلَ يَتَّارُضْ أَبْلغِي مَاءَكُمْ وَبَسْمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هود: 44. فالتعقيب بالآية بالدعاء على هؤلاء المهلكين قد تضمن وصفهم بالظلم ليعلم أنهم كانوا مستحقين للعقاب الذي حل بهم .

ويكثر هذا الأسلوب في القرآن تعقيبا للإخبار عمن حل بهم العقاب أو الهلاك ، فيعقب بأنهم كانوا أهلا لذلك ؛ وأن الله لا يظلم عباده ، ويكون غالبا بالتعبير على أن الله لا يعاقب أحدا بدون جرم سابق ، ولنتأمل في ذلك هذه الأمثلة الحية : ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ العنكبوت: 40. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسُ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يونس: 44، ﴿فِي ظُلُمٍ مِّنَ اللَّيْلِ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَقَتْ أَجَلَتْ لَهُمْ وَبَصَدِهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ النساء: 160، ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِّيثَقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بَيَّانَتْ اللَّهُ وَقَالَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء: 155، ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ الأعراف: 163.

(1) الزركشي ، المصدر السابق ، 3 / 46 بتصرف .

إلى تنفيذ الأحكام المعللة ؛ لكونها مفهومة لدى المكلف من حيث الغرض الداعي إلى تشريعها ، وما فيها من مصالح عاجلة أو آجلة للمكلف ؛ مما يؤدي بدوره إلى مبادرة المكلف إلى تطبيقها وتنفيذها. وهذا ما تحرص عليه الشريعة من جعل أحكامها نافذة مطبقة على الواقع ، لا أن تكون مجرد مواعظ وترانيم لا صلة لها بالواقع التنفيذي ؛ ولذلك لم يشرع كثير من الأحكام الشرعية الأساسية في الفترة المكية ؛ حيث لم يكن هناك إمكانية لتنفيذها على أرض الواقع ، أو لم يكن لدى المكلفين قابلية التنفيذ ، فصان الله تعالى أوامره ونواهيه أن تكون مبتدلة لمجرد التلاوة والتبرك - كما هو حال المسلمين اليوم في كثير من تعاليم القرآن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأخرت هذه التكاليف في الفترة المكية إلى الفترة المدنية حيث التنفيذ ممكن ، والقابلية موفرة لدى المكلف ، وخذ على سبيل المثال أحكام الجهاد والصيام وتحريم الخمر ، وغير ذلك من الأحكام والفرائض التي شرعت بالمدينة .

طرق تعليل الأحكام

وأما طرق تعليل الأحكام فكثيرة ومتنوعة منها ماهو لفظي ، ومنها ما هو معنوي ، ولنكتف بذكر ما كان ذا صلة بالتعقيب القرآني :

أ/ بيان الغاية من التشريع

والمقصود بذلك بيان الحكمة والمقصد من تشريع الحكم ، أو إيجاد الشيء من الخلق ، ومن أمثلته : بيان الغاية من خلق السماوات والأرض ، حيث يقول رب العزة ﷻ : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ الطلاق: 12 . فهذا التعليل للتمدد بالقدرة المطلقة والعلم الشامل من الله ﷻ ، وكذلك تعليم هذه الصفات

فيما سبق . ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ الإسراء: 81 ، فقوله تعالى : « إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » تذييل لمنطوق النص يؤكد معناه القاضي بأن الباطل في أصله وصفته فهو زهوق . وانظر لفظ « زهوقا » الدال على المبالغة وإسمية الجملة المفيدة للإستمرار ، وكل ذلك من أساليب التأكيد للمعاني والأحكام . ومثله قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ ءَابِتٍ مُّفْضَلَتٍ فَأَسْتَكَرُّوْا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ الأعراف: 133 ، فالوصف بالإجرام تذييل لاستكبارهم عن الحق والإيمان به .

ومنه في وصف فرعون وطغيانه وجبروته قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّيعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ القصص: 4 ، فقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ تذييل مؤكد ودليل واضح مصدق على تلك الجرائم البشعة التي ارتكبتها ضد قومه .

المحور الثاني : زيادة البيان والإيضاح

هذا المحور الثاني من محاور التعقيب على الآيات القرآنية ، ويتضمن هذا المحور عدة محاور فرعية ، وهي :-

أ/ التعليل

يعلل القرآن الكريم أوامره وإرشاداته الموجهة إلى المكلفين لأهمية الأمر المعلول من جهتين :

أولا : العموم الذي تقتضيه العلة ؛ لأن العلة المنصوبة قاضية بعموم المعلول ؛ وذلك يقتضي عموم الحكم وشموله في كل ما وجدت فيه العلة. وهذا يقتضي بدوره تأكيد الحكم الشرعي المعلول بتلك العلة المنصوبة وأهميته في خطاب الشرع . ثانياً: أن نفوس العباد مجبولة بالإنبيعات والمبادرة

للمريض والمسافر ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ البقرة: 185 ، فهذه الآية الكريمة عقت بأربع تعقيبات

تعليلية للأحكام المختلفة التي تضمنها الآية من الأمر بالصوم لكل من حضر هلال شهر رمضان مستوفيا شروط وجوب الصوم عليه ، ثم رخص المعذورين من المرضى والمسافرين «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ- وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ- وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ- وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» ، فاقتضت هذه التعقيبات بيان المقصد من الأحكام السابقة ، وبذلك أكدت مفهوم هذه الأحكام .

ومثلها التعقيبات التي جاءت بعد الأمر بالجهاد والنفير ضد العدو، والأمر بالمصابرة مع المشركين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ آل عمران: 140 ، فهذه الآية تعقيب تأكيد للآية السابقة ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران: 139 ، التي نهى الله ﷻ فيها عن الهوان والضعف أمام الكفار للأسباب التي تضمنتها الآية التعقيبية التي تفيد : بأن كل أذى يصيب المؤمنين في المعركة فإن مثله وأكبر منه يصيب كذلك الكفار، وإن هزمت يوما فقد انتصرت أيما ، ثم ليعلم الله الصادقين والكاذبين في دعواهم الإيمان، وليكرم الله المؤمن الصادق بأن يمنحه الشهادة فخرا له في الدنيا والآخرة .

وقد جاءت بعد الأمر بالجهاد تعقيبات مماثلة لهذه التعقيبات كلها تبين المقصد والحكم من

الإلهية المستفيدة من إيجاد هذا الملكوت - مما يدل على قدرته المطلقة وعلمه الواسع الذي له دليل مرئي هو : خلق السماوات السبع ومثلها من الأرض .

ومثله بيان الغاية من خلق الشمس ، وجعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وتقدير القمر بال منازل في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يونس: 5 . ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوْنًا آيَةً اللَّيْلَ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ الإسراء: 12 ، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ البقرة: 189 .

ومثله بيان الغاية من بعض الأحكام العملية، كقوله تعالى بعد بيان أحكام الطهارة من الحدث الأصغر والأكبر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ المائدة: 6 ، ومثله أيضا ما جاء بعد الأمر بالصيام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: 183 ، فعلل حكمة الأمر بالصوم بأنه لتأصيل التقوى وغرسها في النفوس المؤمنة وتطهيرها بهذه العبادة العظيمة . وكذلك قوله تعالى بعد رخصة الإفطار

بأخذ الزكاة المفروضة من المؤمنين عقبها بتعليل مصلحي سببه التطهير والتزكية من الذنوب والمعاصي ، وعلل الأمر بالصلاة على المزكي بأن ذلك يقتضي نزول السكينة على المزكي وأهله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ التوبة: 103.

وكذلك ما جاء في الأمر بإعداد العدة والقوة المادية والمعنوية للجهاد ضد أعداء الله ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ الأنفال: 60، فافاد التعقيب بأن الأمر بهذا الإعداد المصلحة فيه إرهاب وإلقاء الرعب في قلوب الأعداء لردعهم عن الاعتداء بالمؤمنين ، وكفهم من أن تسول لهم أنفسهم بذلك .

وعلى القرآن كذلك في الأمر بتوزيع الثروة المالية الحاصلة من الغنيمة التي ظفر بها المؤمنون من غير خوض في معارك ضارية ضد الكفار - تو زيعها على المستحقين الذين حددهم الله ﷻ معللاً مصلحة هذا التوزيع : بأن لا يكون المال حكراً في أيدي طبقة من الناس يمتصون دماء الفقراء المسحوقين الذين تحتهم - كما هو شأن الرأسمالية الغربية اليوم البرجوازيين - : ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كُنْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ الحشر: 7، فمقصد الإسلام في المال والثروة العامة أن تكون متاحة للجميع يحصل كل فرد على قدر كده وجهده، كما يؤدي الحقوق الواجبة عليه للمجتمع، وبهذا أصبح منهج الإسلام الحنيف وسطاً بين نظرية الشيوعية الاشتراكية التي تصدر حقوق الأفراد وجهودهم الفردية المادية لصالح العام ، والرأسمالية الغربية التي تصدر حقوق المجتمع لصالح طبقة معينة منه تملك كل ثروات الناس

القتال ﴿وَلِيُثَبِّلَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءً حَسَنًا إِنْ كَانَتِ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الأنفال: 17، ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ محمد: 4

فهذه التعقيبات كلها لبيان الغاية والمقصد من هذه التشريعات والأفعال الإلهية .

ب/ التعقيب بذكر ما في الفعل من مصلحة عاجلة أو آجلة - وما فيه من نفع أو ضرر

يكثر في القرآن الكريم ذكره لما في الأحكام التي يشرعها من المنافع في فعل المأمورات والمضار في ارتكاب المحظورات ، وما تؤدي من مصلحة أو مفسدة عاجلة أو آجلة .

ومن أمثلة هذا الأسلوب القرآني ما جاء من التعليل البياني بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله ، أو رفع الصوت على رسول الله ﷺ وعدم تعظيمه المشروع ، مبينا المفسدة العظيمة المترتبة عاجلاً في ارتكاب هذا المحذور ، وهي إحباط عمل المخالف في ذلك وإبطاله ، فقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الحجرات: 2 .

وكذلك تعليله مبينا المصلحة في مساواة شهادة إمرأتين لشهادة رجل واحد في الشئون المالية ، وذلك لئلا تنسى المرأة الواحدة فيما علمت ، وبذلك تضيع حقوق الناس المالية : ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا﴾ البقرة: 282.

ومثله بيان المصلحة العاجلة للأمر بإقامة الصلاة : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت: 45 ، وكذلك بعد الأمر

استحقوا بذلك الهلاك ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ هود: 37.

ومثله أيضا قوله تعالى: ﴿فَلَا يَخْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يس: 76 ، علل سبب النهي عن الحزن والأسى على أقوال الكفار وأذاهم للنبي ﷺ بأن الله يعلم ذلك سره وعلايته ، وبذلك لن يضررك بشيء لأنك تحت رعاية الله الدائمة .

ومثله أيضا ما جاء مدحا لدعاء عباد الرحمن واستعاذتهم من عذاب جهنم ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ ، والباعث على تلك الاستعاذة - قولهم: ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ ٦٥
إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا الفرقان: 65 - 66 .

وكقوله تعالى مبينا سبب إستحقاق المتقين لـ جنات وعيون : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ ١٦ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ الذاريات: 16 - 17 . - جعلنا الله من أهلها بفضله .

المحور الثالث : أغراض التعقيب بأساليب الخطاب النفسية للتأكيد

هناك أساليب متنوعة يستعملها القرآن غالبا في الدلالة على الأحكام الشرعية دلالة لزومية ، وتقتضي كذلك التأكيد للأحكام الشرعية ، ومن ذلك أسلوب المدح والذم ، والوعد والوعيد ، إلخ - وقد سبق أن بحثنا هذه الأساليب عموما - ، وكلامنا عنها في هذا المقام يكون عند ما تأتي تعقيبا على حكم شرعي لتأكيد وتقويته بطرق مختلفة .

ولنبدا الآن كلامنا عن هذه التعقيبات التي تعتبر خطابا توجيهيا لعواطف النفوس وكمائناتها :

1/ التعقيب بالمدح

أ/ التعقيب بمدح الفعل

ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران: 186 ، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعْنَ أَجْلُهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ

وتتحكم في مصيرهم. وسبحان الله! ما أعدل وأعظم منهج دين الإسلام لو أن رجلا يسوقونه في الميادين التي فشلت فيه كل النظريات والمبادئ الأرضية ، وما يعاني فيه العالم اليوم من الأزمة المالية المفتعلة خير مثال على ما نقوله - والله المستعان .

ج/ التعقيب بذكر الباعث - الأسباب - على الخطاب .

ويكثر ذلك في التعليل الجوابي الذي يأتي تعقيبا على سؤال مفترض أو مقدر من طرف المخاطب ؛ فنذكر العلة حينئذ جوابا عن ذلك السؤال المفترض .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في بداية سورة الحج عن القيامة وأهوالها ، ولكنه استهل ذلك بالأمر بالتقوى قائلا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُوتُوا رَبَّكُمْ﴾ الحج: 1 ، فالأمر بالتقوى الموجه إلى كل مخاطب جاء بعده تعقيب يفيد سبب الأمر به ، وذلك : أن التقوى هو الزاد الأعظم للقيامه ومنازلها فالتعقيب يقول: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ، وجيء بهذا التعليل في مقام جواب لسؤال مفترض كأن سائلا سأل : لما ذا الأمر بالتقوى فجاء هذا التعقيب التعليلي جوابا لهذا السؤال المفترض الذي جاء مصرحا في آية أخرى من القرآن : ﴿وَتَكَزَّوْا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَأْتُوا فِي الْآلَتِ﴾ البقرة: 197 .

ومن هذا الأسلوب قول يوسف (عليه السلام) في عدم تبرئة وتزكية نفسه : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يوسف: 53 ، فعلل ذلك بكون النفس الإنسانية داعية إلى السوء والمخالفة لأمر الله إلا من عصمه الله ﷻ .

وكقوله تعالى في النهي عن الشفاعة للذين ظلموا من قوم نوح معللا ذلك بأن المشفوعين ظلمة مجرمون لا يستحقون الشفاعة ، وأنهم

ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ ﴿١٤٦﴾ آل عمران: 146، وكل ذلك جاء بعد أوامر شرعية كحض على الالتزام بها والمداومة على تنفيذها.

2 - التعقيب بالذم

أ/ التعقيب بدم الفعل

ومن أمثله في النهي عن نكاح زوجات الآباء ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ النساء: 22، وكذلك في النهي عن الزنا ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ الإسراء: 32، ومنه أيضا في ذم أفعال اليهود ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِلَافَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ لَيَسَّ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ المائدة: 63، وكقوله ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْغِمِهِمْ وَهَذَا لِسُرَكَايَا فَمَا كَانَتْ لِسُرَكَايَاهُمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ الأنعام: 136، ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسُهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: 102.

ب / التعقيب بدم الفاعل:

وهو كثير في أسلوب القرآن، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة: 229، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ التوبة: 10، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ البقرة: 12، ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ النساء: 38، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ﴾ الأنبياء: 74، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ الصف: 3.

3 - التعقيب بالترغيب

وهو كثير في القرآن، ولا سيما بعد الموطن التي يخشى منها القنوط واليأس لدى المكلف أو المخاطب بسبب خطئه وجرمه، ويكثر ذلك

أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: 232﴾، فقوله: «ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ» تعقيب مدح للنهي عن عضل المرأة عند إرادتها الرجوع إلى زوجها الذي طلقها بطلاق رجعي إذا قررا ذلك بالتراضي.

ومثله التعقيب المادح للإستئذان في البيوت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُذَكَّرُونَ﴾ النور: 27.

ب/ التعقيب بمدح الفاعل

كقوله في مدح الصحابة لتأديبهم مع رسول الله ﷺ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرُّشْدُونَ﴾ الحجرات: 7، ومدحه للمؤمنين ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ البقرة: 5، ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أَهْلُ الْأَلْبَابِ﴾ الزمر: 18، وكمدحه لأيوب بالصبر ﴿وَخَذَ بِيَدِكَ ضَعْفًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ ءَوَّابٌ﴾ ص: 44.

ومن أمثله وهو كثير جدا في القرآن ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ التوبة: 4، ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة: 195، ﴿وَيَسَّالُوكَ النَّاسُ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعِزُّوا نَفْسَكُمْ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة: 222، ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّسِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيَّتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا

ومنه قوله تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ الأحزاب: 71، ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ الحديد: 10، فقوله: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ تعقيب وعد أجل لهؤلاء المنفقين قبل الفتح وبعده .

4 - التعقيب بالترهيب

وذلك لتخويف المقصر من المكلفين حتى لا يغتر بسعة رحمة الله، وذلك قد يكون بتعقيب بالأسماء والصفات كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الممتحنة: 3، ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ المجادلة: 3، فكلاهما للتهديد والترهيب.

وقد يكون التعقيب الترهيبى باستعمال مادة التحذير نفسها ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا﴾ ويحذرهم الله نفسه، وإلى الله المصير ﴿آل عمران: 28، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ آل عمران: 30، وفي هذا المثال الأخير جاء التحذير مقرونا بالترغيب، وهذا الأسلوب موجود بكثرة في أسلوب القرآن، مثل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الأعراف: 167، ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَتَى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ الحجر: 49 - 50 .

بل وقد يستعمل القرآن نصاً واحداً للدلالة على الترغيب والترهيب تكثيراً لمعاني القرآن، كقوله:

في التعقيب بالصفات الإلهية كالغفور والرحيم، والحلم والثواب، وغير ذلك:

أ/ التعقيب بالوعد العاجل

كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم: 47. ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الفتح: 18، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الحج: 39.

ومن أمثلته بعد أحكام الإيلاء ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة: 226، وقوله بعد الوصية ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة: 182، وبعد الترخيص بأكل الميتة للمضطر، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لَعَنَ اللَّهُ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة: 173، وبعد اللغو في اليمين، ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ البقرة: 225، فكل هذه المواطن هي مواطن قد يقع فيها تقصير من المكلف، وقد يصيب في ذلك نوع من الإحباط، فيؤتى بذلك التعقيب للترغيب في التوبة، وقد يكون الترغيب للمشارك ترغيباً له للدخول في الإسلام، ومن أمثلته: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الزمر: 53، ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ المائدة: 74 .

ب/ التعقيب بالوعد الآجل

وهو أكثر وعود القرآن لأهميته، ولكون الآخرة هي الباقية، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرْتُوبُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ المؤمنون: 10 - 11، جاءت هاتان الآيتان تعقباً ختامياً على وصف المؤمنين المفلحين .

شَعُرُونَ ﴿الحجرات: 2.

ب/ التعقيب بالوعيد الآجل

وهو أكثر وعيد القرآن ، وذلك مثل قوله تعالى:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
دَاخِرِينَ﴾ غافر: 60، ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ آل
عمران: 21، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ المائدة: 10.

5 - التعقيب بالحث أو التهيج

وهذا يأتي بصفة خاصة في أسلوب العدول،
وخصوصا في التعبير بالماضي عن المضارع عندما
تدخل «إن» الشرطية في فعل الكون (إن كنتم) وذلك
يرد في ختام كثير من الآيات لأغراض ومنها:
1/ في الحث واستثارة الهمم:

وذلك للتشجيع على تنفيذ الأمر الشرعي،
كقوله تعالى في الجهاد ضد الكفار: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ
قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ
بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَرِهَ اللَّهُ لِقَائِهِمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ أَن تَخْشَوْهُ
إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ التوبة: 13، جيء بالشرط المتعلق
بالمستقبل لقصد إثارة همتهم الدينية ليبرهنوا على
أنهم مؤمنون حقا يقدمون خشية الله على خشية
الناس،⁽¹⁾ ومثله في الحث على الجهاد قوله تعالى:
﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران: 139، «قصد به تهيج غيرتهم
على الإيمان، إذ قد علم الله أنهم مؤمنون، ولكنهم
لما لاح عليهم من الوهن والحزن من الغلبة، كانوا
بمنزلة من ضعف يقينه، فقبل لهم: إن علمتم من
أنفسكم الإيمان»⁽²⁾، والمعلوم أن حرف الشرط «إن»
تستخدم للتشكيك في حصول ما دخلت عليه،
ولكنها هنا ليست للتشكيك، ولكن من باب

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ المتحنة: 3، ﴿إِنْ لَّمْ
تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ
لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ﴾ النور: 28، تستعملان في أسلوب القرآن
للتغيب والترهيب حسب سياق النص ومقامه.
فهذه ترهيبات عامة كما يظهر في الأمثلة
السابقة ، ويتفصيل آخر نقسمه إلى قسمين :

أ/ التعقيب بالوعيد العاجل

ومن أمثله قوله تعالى في شأن المنافقين: ﴿وَإِنْ
يَسْتَوُوا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ التوبة: 74 ،
ومثله قوله تعالى مهددا لكفار مكة : ﴿وَمَا هِيَ
مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ هود: 83 ، بعد أن قص
سبحانه وتعالى عن ما حل بقوم لوط من النكال .
ومثله في الوعيد بعقوبة عاجلة : ﴿فَأَثْبِتْكُمْ عَمَّا
بَعِمَ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا
أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ آل عمران:
153 ، بعد قوله تعالى في ارتكاب الصحابة للمخالفة
لأمر النبي ﷺ : ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا
عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ﴾ آل
عمران.

ومثله العقوبة العاجلة عموما بسبب ارتكاب
محظور شرعي ، وذلك كثير في القرآن : ﴿وَقَالَ لِلَّذِي
ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَنَّهُ
الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾
يوسف: 42 ، ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا كُلَّ
ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا
إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ
جَزَيْنَهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ الأنعام: 146، ﴿يَتَأَيَّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا
لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا

(1) ابن عاشور، المصدر السابق:

(2) المصدر نفسه، 4/ 99.

توكيد المدح بما يشبه الذم. والله أعلم.

2/ التعقيب بالتشنيع على الفعل

وذلك أن حرف الشرط «إن» يقتضي أن يكون ما بعده مستقبلا ، فإذا جيء به ماضيا لفظا ومعنى علم من ذلك : أن المراد تنزيل الماضي المتحقق منزلة غير المتحقق إستهجانا له وتشنيعا على فاعله ، كما يتضمن أيضا معنى عدم التصديق بوقوع الفعل أو استهجانا له .⁽¹⁾

ومن أمثله قوله تعالى : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾ الزخرف: 5 ، على قراءة الكسر بالهمز «إن» . ففي هذا التعبير بالشرط «تعيير للمخاطب على الشرط وتصوير أن المقام لاشتماله على ما يقلع الشرط عن أصله لا يصلح إلا لفرضه كما يفرض المحال» .⁽²⁾

ولذلك يقول صاحب الكشاف « فإن قلت: كيف استقام معنى «إن» الشرطية ، وقد كانوا مسرفين على البت ؟ قلت : هو من الشرط الذي ذكرت أنه يصدر عن المدل بصحة الأمر المتحقق لثبوته كما يقول الأجير «إن كنت عملت لك فوفني حقي» ، وهو عالم بذلك ولكنه يحيل في كلامه أن يفرط في الخروج عن الحق فقل من له شك في الإستحقاق مع وضوحه استجهالا له» .⁽³⁾

6/ التعقيب بالإنكار على الفاعل

ويرد غالبا بصيغة الإستفهام الإنكاري للتعقيب باللوم والتوبيخ ، كقوله تعالى : ﴿ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ آل عمران: 65 ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالْأَلَدَى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ آل عمران: 183 ، وقوله

تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ الأحقاف: 20 ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ الأحقاف: 34 ، ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا نَنْحِتُونَ ﴾ الصافات: 95 .

فكل هذا الإستفهام للإنكار والتوبيخ ، ويقتضي تأكيد نهى الفاعل الذي وقع عليه الإنكار من الشارع . ويدخل بعض اللوم والعتاب على هذا كقوله تعالى : ﴿ اتَّخَذْتُمْ مِمَّا فَلَاحَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ التوبة: 13 .

7/ التعقيب بالوعظ والتذكير والتنبيه

ويقع ذلك كثيرا بعد إيراد الأوامر الشرعية، حيث يؤتى لتذكير المرء بالله عز وجل والنصيحة له للإيقاظ من غفلته وسباته، والغرور بمغريات الدنيا والشيطان.

ومن ذلك الأمر بالتقوى والتذكير بالرجوع إلى الله بعد الأحكام الشرعية، وقد مر أن الأمر بالتقوى يؤتى به كتمهيد ومقدمة للأوامر الشرعية، فذلك هنا يؤتى به كتعقيب مؤكد على الالتزام بهذه الأحكام الشرعية، ومن أمثله: الأمر بالتقوى بعد الأمر بالاعتزال عن المحيض ثم الإرشاد بمعاشرة المحيض بعد طهارتها، ولكن في مكان الحرث كيف شاء، وقال بعد ذلك معقبا: ﴿ نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شَتَّىٰ وَقَدْ مَوَّأَ لَآئِفُسُكُمْ وَأَنْتَقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَقَّوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: 223 . وهكذا بعد أحكام الطلاق، والأمر بالإمساك إما بعروف أو تسريح بإحسان: ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِّعَعْدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَادْكُرُوا عَمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَأَنْتَقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: 231 . كما عقب أحكام

(1) ينظر : ظافر العمري ، بلاغة القرآن ، / 370 .

(2) الإيضاح / 180 . بتصرف .

(3) الكشاف ، 3 / 378 .

كذلك يستعمل في التعقيب مادة «الإعلام» وذلك كثير في القرآن، وبأني للتخويف والترهيب، وكذلك للوعظ والتنبيه، كقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة: 231، فهذا التعقيب للترهيب، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ التوبة: 36، وهذا للترهيب، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ البقرة: 235، وهذا المثال جمع بين التعقيبين: الترغيب والترهيب معاً.

الخاتمة :

التعقيب القرآني هو جزء مكمل للخطاب التكليفي المقصود بسياق النص القرآني، ويكون خادماً له بالتأكيد والتقرير، لحث المكلف على الامتثال والانسياق لتطبيق النص وأغراضه .

النتائج :

- التعقيب القرآني هو الجزء من الآية الذي يقع في ختام الآية القرآنية، أو أي مقطع منها مكتمل المعنى سواء في وسط الآية أو في ختامها أو غيرها لأغراض تأكيدية مختلفة تناسب المقام والسياق .
- نظم الآية القرآنية يكون غالباً من مقدمات ومهدات تأكيدية ومقصد الآية الرئيس ثم لواحق وامتدادات تأكيدية .
- التعقيب القرآني أعم من الفواصل القرآنية وبينهما عموم وخصوص .
- التعقيب القرآني يظهر جلياً في الآية القرآنية طويلة المقاطع، وأحياناً يكون في قصار الآي .
- مصطلح التعقيب القرآني استعمله الأقدمون كما رأينا عند الشهاب الخفاجي في كتابه الطراز

الربا وما فيها من وعيد بقوله: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ البقرة: 281.

بل يقول الإمام العز بن عبد السلام متكلماً عن موضوع التقوى في القرآن: « وأول ما أنزل الله إليه الأمر بقراءة القرآن ومذمة الغنى والطغيان والتخويف بالرجوع إلى الله تعالى بقوله: « إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى » ثم ختم كتابه بنصح جامع فقال تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ أي اتقوا عذاب يوم ترجعون فيه إلى جزاء الله ، وإنما يتقى عذاب ذلك اليوم بفعل كل واجب وترك كل محرم ثم توفي كل نفس ما كسبت أي جزاء ما كسبت وهذا عام في اكتساب الخير والشر وهم لا يظلمون أي لا ينقص من حسنات محسنهم ولا يزداد على سيئات مسيئهم أمر بالتقوى ثم رغب ورهب بالرجوع إليه توفيه أجور الخير والشر⁽¹⁾ وهذا الكلام على اعتبار أنها آخر ما نزل من القرآن وذلك رأي جمهور العلماء. وهكذا ختم آية الدين بقوله: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة: 282.

فالتذكير بتقوى الله عز وجل بعد الأحكام الشرعية منهج أصيل في أسلوب القرآن، سواء في تمهيده للأحكام الشرعية، أو التعقيب عليها. وقد يؤتى بالتعقيب على صيغة التنبيه باستعمال مادة «الوعظ» كقوله بعد أحكام الطلاق معقبا ﴿وَلَا تَنْخَضُوا ءَايَتِ اللَّهِ هُزُواً وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يُعْظِمُ بِهِ﴾ البقرة: 231، وكقوله بعد الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها وبالحكم العادل بين الناس: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعْظُمُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ النساء: 58.

(1) الإمام في بيان أدلة الأحكام / 75.

- السلمي ، الإمام أبو محمد عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام ، الإمام في بيان أدلة الأحكام ، الناشر : المكتبة الشاملة ، الإصدار الثالث .
 - الإشارة إلى الإيجاز ، الناشر : دار الحديث - القاهرة (بدون).
 - سيبويه ، أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، الكتاب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار النشر: دار الجيل - بيروت (بدون).
 - سيد قطب، بن إبراهيم ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، الطبعة الثانية ، (1395هـ - 1975م).
 - السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ، الإتيقان في علوم القرآن ، تحقيق سعيد المندوب ، الناشر دار الفكر- لبنان (1416هـ - 1996م) .
 - الشهاب الخفاجي ، أحمد بن محمد ، حاشية الشهاب (عناية القاضي وكفاية الرازي) ، الناشر: دار إحياء التراث العربي ، بيروت (بدون).
 - ابن عاشور ، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي ، التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور ، الناشر : مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان ، الطبعة : الأولى، (1420هـ / 2000م) .
 - المطعني ، عبد العظيم إبراهيم ، خصائص التعبير القرآني ، مكتبة وهبة - القاهرة ، الطبعة الأولى (1412هـ ، 1992م) .
 - ابن منظور ، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري ، لسان العرب ، الناشر : دار صادر - بيروت ، الطبعة الأولى (بدون) .
 - قاصدا به الفاصلة ، ونحن استعملناه فيما هو أعم من الفاصلة القرآنية .
 - كما أن نظرية (هيكل الآية - أو - أجزاء نظم الآية -) الوحيد الذي رأيت قد أشار إليه بعبارة موجزة هو الإمام المقاصدي المفسر العز بن عبد السلام .
 - يعقب القرآن مقاصده وتشريعاته بتعقيبات أساسية أعظمها :-
 - التعقيب بالصفات والأسماء الحسنى العلية
 - التعقيب بالصفات الإنسانية والخصائص النفسية .
 - التعقيبات العامة
 - التعقيب القرآنية ليست كلها مجرد تأكيد لأحكام سبقتها في السياق فقط ، وإنما قد تفيد حكما جديدا .
 - التعقيب بالصفات والأسماء الحسنى يكون بما يناسب سياق الحكم السابق عنها ، وهو أمر في غاية الدقة من التناسب البياني في الخطاب القرآني.
 - يعقب القرآن خطابه التكليفي بصفات إنسانية تناسب المقام وجبلة المخاطب المكلف كإنسان.
- المصادر**
- القرآن الكريم
 - أبو زيد ، أحمد ، التناسب البياني في القرآن ، الناشر : جامعة محمد الخامس ، المملكة المغربية (1990م).
 - الزركشي ، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الناشر : دار المعرفة - بيروت ، (1391هـ).